

خزائن كتب الزوايا بالمغرب

الأستاذ أحمد التوفيق

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية — الرباط

اختلف السياق التاريخي لتأسيس خزائن الكتب بالمغرب، فمنها ما تأسس بمبادرة الأمراء والرؤساء، طلبا للحلية وتثبيتا للنفوذ السياسي، وذلك لأن انتشار الإسلام اقترن في هذه الربوع بإشاعة المعارف العلمية المكتوبة بالتدريج كوجه من وجوه إدخال العقيدة وترسيخها مع ما يرتبط بها من أدب وقيم وآلات. وفي سياق مشابه من حيث النتيجة ومختلف من حيث المقاصد تأسست خزائن أخرى على أيدي كبار العلماء وشيوخ الإسلام في هذه البلاد. وتأسس نوع ثالث من خزائن الكتب بسعي شيوخ الرباط والطرق الذين أسسوا حلاق الدرس إلى جانب حلاق التربية في إطار التصوف «السلفي» إذ نشأت خلال القرون الأربعة الأخيرة على الخصوص زوايا — مدارس قصدها طلاب السلوك وطلاب العلوم في آن واحد، وقد تكاثرت هذه المراكز وازدهرت بفضل رفق مكفول من الجماعات تعد مناطق الجنوب نموذجية في تنظيمه. أما النوع الرابع من خزائن الكتب فقد تكون في الجوامع والمساجد والأضرحة تحقيا لمقاصد مختلفة باختلاف أنواع المحبين.

وهكذا انتهت إلينا اليوم خزائن تراثية سلطانية، وخزائن في ملك أسر متوارثة للعلم، وخزائن في بعض المدارس والزوايا، وخزائن محبسة على عدد من الجوامع والأضرحة والمزارات.

وعلى هذا الاختلاف في السياق السياسي أو الثقافي أو الديني أو الاجتماعي لنشوء خزائن الكتب، ترتب اختلاف قدرها وصيغتها ومصيرها، وفي جميع الحالات تميز تاريخ الخزائن بقلة التراكم، وهي حالة تنسحب على جوانب حضارية

أخرى تدخلت فيها عوامل الاضطراب السياسي والخصائص الطبيعي وخضوع الملك الشخصي لمقتضيات الميراث حتى تعاورتها أدوار النمو والتدهور المتجاوبة مع ظروف عامة أو محلية أو ظروف مؤسسات حاضنة للخزائن، وهذا ما طرأ على كثير من الزوايا بذهاب المشيخات الكبرى وزوال الاشعاع العلمي عن مراكزها.

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على الدور الرئيسي الذي قامت به الزوايا الصوفية في مدن المغرب وبواديه في المجال الديني والثقافي والاجتماعي، حتى إن تاريخها ينطبق إلى حد كبير على تاريخ الدين والثقافة والمجتمع، ولن يتضح عظم ذلك الدور وضوحا تاما ما لم توضع خرائط النشاط الصوفي والعلمي والاجتماعي للزوايا منذ العصر المريني على أقل تقدير، ولاشك أنها لو وضعت ستبدو شبكات كثيفة امتدت عبر القرون لتغطي حتى المناطق النائية المتوغلة في الجبال، وتتمس بتأثيرها أبعد المجموعات القبلية عن الحضارة المكتوبة.

ولسنا في حاجة، من جهة أخرى، إلى إبراز الأهمية التي صارت لخزائن كتب الزوايا في المغرب، إذ كفانا مؤونة ذلك الأستاذ محمد المنوني بفهرسته لكتب الزاوية الحمزية⁽¹⁾ ولكتب الزاوية الناصرية⁽²⁾ إضافة إلى ما يشهد به من الغنى القسم المنقول من كتب هذه الزاوية الأخيرة إلى قسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط حيث تمت فهرسة الجزء الأكبر منه تحت حرف «ق».

بيد أننا لا نعرف جميع الزوايا الفرعية الصغرى التي تملك رصيذا من كتب التراث ولاسيما في البوادي، حيث بقي عدد من هذه الزوايا مجهولا خارج النطاق المحلي، مع العلم بأن كثيرا منها، ولاسيما في سياق حركات سنية ذات تقاليد علمية كما هو الشأن بالنسبة للجزولية عامة، كان قبلة للمريدين والمتبركين ومحام سداد وصلح للفلاحين ومدارس للطلبة ونوادي للمدارسة والأخذ والمنافسة، حرص شيوخها على جلب الكتب بالافتناء والتحبس، وعلى سبيل التمثيل لهذه الشبكة أبرز بحث تاريخي ميداني يهتم منطقة درعة⁽³⁾ أنه قامت بواحات الوادي خلال

القرون الأربعة الأخيرة زوايا كثيرة يفوق عددها عشرين زاوية إضافة إلى الزاوية الناصرية الكبرى وفروعها. وقد قام معظمها بتدريس العلوم وتوفرت له خزائن كتب وتخلفت عن أصحابها تقاليد في حفظ الوثائق وإنجاز التقايد. وقد تحدث محمد المكي الناصري (المتوفى حوالي 1757/1170) في كتابه «الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة»⁽⁴⁾ عن واحد من الشيوخ المكونين لخزائن الكتب وهو محمد بن إبراهيم الجزولي الدرعي فقال: «رحل إلى المشرق (عام 1035هـ/1626) في أبهة عظيمة فحج ورجع، حدثني من أثق بحديثه، بل شاع وذاع وملاً الأسماع عن الشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر رحمه الله قال: «لما عزم صاحب الترجمة على الحج استصحب معه ثلاثين قنطارا من الذهب: عشرة منها في مأكله وما يقوم به وتعلقاته وأصحابه في الطريق، وعشرة اشترى بها ما أراد من التحف والذخائر النفيسة، وعشرة اشترى بها الكتب، وكان في ما قبل مغرما بإنشائها، جمع منها شيئا كثيرا، ونهبها بعد ذلك السلطان زيدان بن أحمد المنصور بسبب أمور يطول بنا سردها، والله عاقبة الأمور».

إن تاريخ حج الجزولي منصوص عليه في كتاب الفوائد الجملة الذي كتبه التمارتي بتروذانت سنة 1636/1045. ولكن تاريخ غصب كتب الجزولي على يد الأمير السعدي لم يرد إلينا. فإما أن يكون قد وقع قبل 1612 وهو تاريخ سطو القراصنة على خزانة الملك السعدي وتحويلها إلى الإسكوريال⁽⁵⁾ فتكون كتب الجزولي ضمن ما سرق من خزانة زيدان، وتكون الكتب التي اقتناها الجزولي في حجه سنة 1626 محاولة لتعويض الخزانة التي غصبها الأمير؛ وإما أن يكون غصب كتب الجزولي قد وقع بعد ضياع الخزانة الأميرية سنة 1612 لأن زيدان أراد أن يعيد بناء خزانة جديدة على حساب جماعي الكتب من أمثال الجزولي، فيكون اقتناء الجزولي بنفس الغرض التعويضي. أما أن يكون الغصب قد وقع بعد رجوع الجزولي من الحج، فغير مرجح لأن زيدان لم يعيش سوى عامين بعد ذلك حيث توفي سنة 1628م. وفي جميع الحالات، فإن كلا من السلطان زيدان

(4) حقه مؤخر محمد لحبيب نوح، د.د.ع مكتبة كلية الآداب بالرباط 1988، ورقم ترجمته الجزولي فية: 75.

(5) راجع ملاسات تحويل هذه الخزانة إلى الإسكوريال عند محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ص 183، مطبعة فضالة 1976.

(1) راجع مجلة تطوان، العدد الثامن ص 67 — 177، سنة 1963.

(2) دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، مطبعة فضالة، 1985.

(3) أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، د.د.ع./ مكتبة كلية الآداب بالرباط 1988.

السعدي ومحمد بن إبراهيم الجزولي كان من أعظم المغرّمين بالكتب المنشئين للخزائن.

والواقع أن مظان المصادر لا تنحصر في الزوايا الكبرى، مثل الزاوية الناصرية بتمكروت بوادي درعة، بل إن فروع كل زاوية — أم كانت بمثابة أجهزة دفع للثقافة المرتبطة بمهمة الزاوية، فكل تتبع لتاريخ نشاط الزوايا يؤدي إلى التعرف على مجالات إشعاعها، ويرشد بالتالي إلى عدد من المظان المحتملة للتراث، علما بأن كثيرا من النشاط الثقافي والعلمي للزوايا لم تتخلف عنه آثار مكتوبة، فما عسانا نعلمه عن نشاط الناصرية في السفح الشمالي للأطلس لو لم يكتشف كتاب «الدرّة الجليلّة» للخليفتي، مثلا؟ فمن هذا الكتاب نعرف تراجم أزيد من ثلاثمائة من الأشخاص الذين أطروا نشاط المنتسبين للناصرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من أبناء القبائل التي على ضفاف وادي تاساوت ووادي العبيد. وقبل أن تظهر نسخة ثانية من هذا الكتاب عند بعض الخصوص في مدينة طنجة تم تحقيقه على نسخة وحيدة كانت في ملك قاض من علماء منطقة بزو الواقعة في مقدمات جبال المجال المذكور. فالتراث العربي في هذا الغرب الإسلامي قد بلغ إلى أقصى المناطق النائية وحظي فيها بالرعاية، وإذا احتاج هذا القول إلى دليل فمن الأدلة عليه أن بلدة بزو المشار إليها تحتضن خزانة للكتب المحبسة على جامعها وفيها وقع العثور على النسخة الفريدة من الكتاب الذي خصصه الجاحظ للمهمشين في مجتمعه أولا وهو كتاب البرصان والعرجان والعميان والحوالان⁽⁶⁾.

وفي هذه المنطقة توجد زاوية تناغمت التي يعرج عليها من طريق أزيلال، فموقعها في قلب الأطلس على سفح مشجر مظل على وادي أمرصيد قريبا من نقطة مصبه في وادي العبيد على بعد ثلاث كلمترات من مساقط أعظم شلالات المغرب، وهي شلالات أزوض. هنالك في الحدود القديمة بين مجال المجموعة القبلية الهسكورية والمجموعة الصنهاجية الأطلسية، تأسست هذه الزاوية على يد أحد صلحاء القرن الحادي عشر الهجري وهو الشيخ موسى البوكمازي⁽⁷⁾، نسبة لأيت بوكماز قبيلة جبلية قريبة من تلك الجهة. وقد نما نفوذ رابطته الصوفية على نمط الزوايا المرتبطة بوظائف قبلية، حتى شمل أيت عباس وأيت بوكماز وأيت

(6) راجع مقدمة تحقيق عبد السلام محمد هارون لهذا الكتاب المنشور ببغداد سنة 1982.

(7) راجع ممتع الأسماع : 16 ودوحة البستان، 58 والصفوة : 201 — 202.

مصاّض. وتعين لدى قبائل مجال الزوايا مقدمون ونواب لزاوية تناغمت، سهروا على توثيق الصلة بين قبيلتهم وبين الشيوخ المتعاقبين وبتلك الصلة يأتي الردف الضروري لمشاريع الزاوية دينية كانت أو علمية.

وقد أورد صاحب الدرّة الجليلّة إشارة إلى خزانة الكتب التنگمليّة عندما ذكر أحد المتولين مشيخة الزاوية، وهو أبو عبد الله بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز وقد وصفه بالمعرفة المتقدمة في العلوم وقال عنه إنه «كان مجتهدا في إحياء ما اندرس من كتب زاويته» وهي إشارة يفهم منها أن خزانة الكتب قد تأسست ونمت في وقت سابق من تاريخ الزاوية قد يكون هو وقت انتساب التنگمليين إلى الناصريين، نظرا لما لهؤلاء السادة من اهتمام بالكتب ونشر العلم عامة.

وقد استمرت العناية بالقراءات القرآنية، وتدرّس مبادئ العلوم في الزاوية التنگمليّة إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري على أقل تقدير⁽⁸⁾، وبعد ذلك استمرت الزاوية في وظائفها الدينية والاجتماعية، فتوقف نمو الخزانة التي لم يدخل إليها سوى عدد قليل من الكتب المطبوعة على الحجر، والمطبوعة طباعة عصرية.

وقد التفتت الأنظار إلى الزاوية التنگمليّة في قرننا هذا، حيث زارها شخص من العلماء المغرّمين بالكتب والآثار وهو عبد الحّي الكتاني، وذلك على الأرجح عام 1934. وبعد ثلاث سنوات زار منطقة شلالات أوزوض الملك المغفور له محمد بن يوسف، وفي السنة الموالية لزيارته وضعت قائمة إجمالية بأسماء كتب خزانة هذه الزاوية بمبادرة أحد علماء منطقة بزو، وهو عبد الرحمن بن أحمد البزيوي، فقد كتب في صدر هذه اللائحة : «تقييد ببيان الكتب الموجودة بزواوية تناغمت وكلها بخط اليد عدا ما أرشد عنه منها بكونها بالمطبعة وذلك بتاريخ ثاني عشر ربيع النبوي 1357 عندما قمنا بزيارة تلك الخزانة صحبة الفقيه العلامة المؤرخ سيدي عبد القادر بن سودة الفاسي والفقيه العدل سيدي محمد نور الدين

(8) إذ أن العجدا مي الذي عرفنا بمذكراته في كتابنا عن إنيولتان يذكر أنه هم في أيام السلطان مولاي الحسن بالذهاب إلى مدرسته زاوية تنغمت فعدّل عن ذلك بسبب ظروف مجاعة حادة.

(9) والد مؤلف كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى.

بن أبي بكر البزيوي، ثم بعد الزيارة وجهت له كتابا مضمنا أن ينشر ما وقفنا عليه في الخزانة⁽¹⁰⁾.

وهذه اللائحة هي التي نقلتها «لائحة المخطوطات الموجودة بزواية تنغملت بإقليم بني ملال» التي نشرتها مستنسخة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة بالرباط سنة 1973، وفيها 34 صفحة ذكر بها ثمانمائة مجلد دون ترتيب لا حسب الأبجدية ولا حسب الفنون، وقد وضع قبل كل عنوان أو مجلد رقمه الترتيبي (نمرته)، ثم يذكر العنوان كاملا أو مختصرا، وإن لم يعلم، ذكر الفن الذي يتناوله وإن كان جزءا من عدة أجزاء وقع النص عليه، وإن كان المجلد مجموعا ذكر ما بداخله من المتون دون إدخالها في الترقيم الترتيبي. وأمام كل مصنف إسم مؤلفه، ثم تاريخ النسخ إن وجد.

وتشمل مواضيع كتب خزانة الزاوية التنغملية عددا كبيرا من الفنون كالقرآن وعلومه والتفسير والحديث والسيرة النبوية والعقائد والفقه والتصوف واللغة والأدب والتراجم والتاريخ والرحلات والفلك والطب، وغير ذلك. ومما جاء في لائحة كتبها :

للمشاركة والأندلسيين :

- مراتب العلوم لابن حزم.
- تأليف في السياسة لابن رضوان.
- شعر لابن هانيء.
- التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي.
- اللؤلؤ النظيم في روح التعلم والتعليم للأنصاري.
- تأليف في الطب للشاقوري.
- تأليف في الطب لابن سينا.
- ديوان المعري.
- تأليف في الحسبة للسقطي.
- شرح عجائب القلب للغزالي، الخ.

(10) من نسخة مصورة عند أحمد عمالك، لأن اللائحة التي نشرتها وزارة الأوقاف خالية من هذا التصدير.

وللمغاربة :

- شرح تلخيص المفتاح للولائي.
- مسألة أولاد الأعيان للرسموكي.
- ديوان اليوسي.
- درة الحجال لابن القاضي.
- الدرر المرصعة لمحمد المكي الناصري.
- تقايد في الفقه للمعطي بن الشرقي.
- تذييل أجوبة الورزازي للككيكي.
- المجالس المكناسية لليفرني.
- تنبيه الإخوان في ترك البدع والعصيان لمحمد بن علي السوسي.
- تويلف في الحساب للمغراوي.
- التيسير العجيب في التفسير الغريب لابن القاضي.
- شرح منظومة السجلماسي للخلوفي الصرغيني.
- مناقب الشيخ عبد الله معن للفاسي.
- تأليف في تعلم الصبيان للسلطان محمد بن عبد الله.
- تأليف في قبلة المغاربة⁽¹¹⁾ للشيخ الصالح أبي صالح.
- ومن الكتب المتبورة أو التي لم تحقق أسماء مؤلفيها :
- مجموع في الفقه والتصوف.
- تاريخ الملوك الماضية.
- كتاب في الطب مبتور الأول.
- كتاب في التصوف.
- رحلة إلى الحج بأولها بتر.
- كتاب في مناقب الأئمة والمجاهدين.
- كتاب في التصوف.

(11) هذا تويلف قيم ألفه رجل أيلاني من جهات مراكش في القرن السابع، وتضمن معلومات تاريخية حول تكوين الرباطات ومحاربة برغواطة. وقد كان الاطلاع على النسخة التنغملية إن بقيت هنالك، من الدوافع لنا على تكرار زيارة الزاوية، ولربما كانت النسخة الموجودة من هذا الكتاب في الخزانة العامة بالرباط مأخوذة من تنغملت.

— أوراق بعضها في التاريخ.

— تقايد في الطب.

— كتاب للنفري، الخ.

ولبعض الكتب قيمة خطية فنية، ومن بينها «مصحف كريم» في سفر رقيق وفي غلاف من المؤبر، وكتاب ربيع الأبرار للزمخشري، وديوان المتنبي، ومقنع المحتاج في آداب الأزواج الخ.

وبصفة عامة فإن كتب الخزانة التعملتية يغلب على اختيارها الغرض الدراسي والاهتمام الصوفي وأثر النسبة الناصرية. وأقدم ما ورد في لائحتها من حيث النسخ يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الهجري. ومما يلفت الانتباه، كثرة مؤلفات السيوطي بين الكتب المذكورة، وكذا وجود عدد من التأليف التي وضعها أشخاص محليون من النكرات، ومعظمها في الفقه والدين واللغة.

وقد قمنا بثلاث زيارات للزاوية التعملتية منذ 1970، وفي كل زيارة منها حظينا بكرم عميدها ولياقته، وصرفنا صرفا لطيفا عن الغرض الذي هو الوقوف على أحوال الخزانة وذخائرها. وقد تحققنا من وجود تفاوت قليل بين أرقام اللائحة المنشورة وبين الأرقام التي على كتب الخزانة، كما تحققنا من كون الكتب في ست «خزانات»⁽¹²⁾ يعين كناش بأيدي أصحابها أرقام الكتب التي في كل خزانة، وذلك في غرفة لا تتوفر فيها أي شروط صيانة بالرغم من جفاف هواء تلك المنطقة. ولعل أصحاب الخزانة يستندون في موقفهم الحالي المتمثل في الحرص الشديد على ممتلكاتهم من الكتب إلى ما فرط في أوائل عهد الاستقلال من بعض الموظفين الذين نقلوا جملة من الكتب إلى العاصمة على سبيل الاستعارة، فلم يردوا الأمانة إلى أهلها.

وقد اطلع زميلنا أحمد عمالك⁽¹³⁾ في هذه المدة الأخيرة على حالة الكتب التعملتية وتصفح ما يقدر بثلاثها، وأكد ما أشرنا إليه من وضعية قلة صيانتها، وليست هذه الوضعية شاذة في شيء بالنسبة لوضعية خزانات الزوايا بصفة عامة، فقد دخلت عهدا من الجمود المرتبط بتبدل جانب في وظائف تلك الزوايا حيث

(12) بمعنى الطارمة أو الدولاب أو الصندوق.

(13) أستاذ التاريخ بكلية الآداب بمراكش.

انصرف أصحابها عن المهمة التدريسية المرتبطة بالخزانة، وصارت تلك المخلفات التراثية في أعينهم إرثا محنطا تزيد قدسيته مع مرور الأيام، فلا يمكن الحفاظ عليه من النهب إلا بمنع الناس كافة من رؤيته، وهذه الظاهرة تبرز بشكل قوي بسبب انعدام سياسة تشريعية في هذا الميدان يكون من شأنها طمأنة المالكين على تراثهم وإعانتهم على تجديد دور تلك الخزائن على نطاق أوسع والقيام بإجراءات الصيانة على كاهل النفقات العامة، وإذكاء ما قد يكون خبا من شعلة في تلك النفوس التي ظلت وفية لتقاليدها في الكرم إلا بالكتاب.

إن وضعية خزانات كتب الزوايا الكبرى والصغرى في المدن والبوادي بالمغرب تستدعي مبادرة مستعجلة لإنقاذ نفائس من التراث ومعالم في التاريخ الثقافي، لأن هذه الخزائن مهمة بما قد يكون فيها من فرائد أو من نسخ ضرورية للتحقيق كما هي مفيدة كوئائق مادية لمؤرخ المجتمع والثقافة، فالكتب إن لم تكن مهمة بأفرادها فإن الخزانة في غاية الأهمية بشخصها وميزاتها وموقعها كباب وكعامل ثقافي تاريخي في وسط ما⁽¹⁴⁾.

(14) إذا كانت هذه الدراسة السوسولوجية الثقافية للخزانة كوحدة لا تتم بصفة أساسية الباحثين عن نواذر المخطوطات، فإنها في الحقيقة غنية بالنسبة لمؤرخ الثقافة والمجتمع ولاسيما بالنظر الأركيولوجي الذي ينقب عن خلفيات استعمال مختلف أنواع الكتب وروجانها، إضافة إلى أهمية التقايد التي على دفات الكتب وهوامش الصفحات وغيرها.